مقدمة

تنبع مبادرة جامعة البلمند إلى إقامة هذه الحلقة الدراسيّة عن المؤرّخ أسد رستم من اهتمامها بالبحث التاريخيّ، وتاليًا بمستقبل الشباب في هذه المنطقة من العالم.

ففيما كانت الحرب مندلعةً بين مختلف الفئات اللبنانيّة، أسّس غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع (هزيم) جامعة البلمند تأكيدًا منه أنّ الفكر لا يستقيم إلا متى ارتبط بخدمة الانسان وحاجاته على احترام كليّ لجذوره تصاحبه خيارات واضحة للمستقبل. وكان البطريرك قد أنشأ العام ١٩٨٧ "مركز التوثيق والدراسات الأنطاكيّة"، ثمّ أسّست جامعة البلمند "معهد التاريخ والآثار والتراث المشرقيّ" سعيًا إلى دعم قراءة الوثائق التاريخيّة قراءةً علميّةً في منأى عن الشأن الإيديولوجيّ وبغية كشف حقيقة وجود الأشخاص والجماعات وتعايشهم. وتهدف مثل هذه القراءة العلميّة إلى إبراز التراث الجامع للمنطقة وتبيان التاريخ بحلوه ومرّه من دون التغاضي عن خصوصيّات الجماعات والعمل على إيضاحها والمحافظة عليها.

إنّ الإقبال على عمل المؤرّخ الراحل أسد رستم يتناسب وهذه الرؤية. فأسد رستم أكسبه عمله الموسوعيّ عن تاريخ كنيسة أنطاكية العظمى لقب "مؤرّخ الكرسيّ الأنطاكيّ". وقد وضع، في هذا السياق، عدداً كبيراً من المقالات العلميّة التي كشفت النقاب عن وثائق أساسيّة ناشراً إيّاها في الدوريّات والمجلاّت الدينيّة مثل "المسرّة" و"النور". في مروره على تاريخ كنيسة أنطاكية، حفظ أسد رستم للجماعات والطوائف الأخرى مكانتها في نشأتها وتحديد تراثها وتقويم دورها، وذلك رغم أنّ جهده التأريخيّ تركّز على المسيحيّين الملكيّين، وخصوصاً الأرثوذكس الأنطاكيّين. فأتى عمله دقيقاً، شاملاً، مسكونيّ الطابع.

و لم يكن التاريخ الدينيّ هو اهتمام أسد رستم الوحيد. فقد عالج كثيراً من المسائل التاريخيّة المرتبطة بدول منطقة الشرق الأدنى. وقد فصل أسد رستم فصلاً قاطعًا بين التاريخ الدينيّ والتاريخ السياسيّ للمناطق التي تحدّث عنها. فاتّصفت معالجته تاريخ لبنان الحديث بالموضوعيّة لتبنّيها نموذج لبنان الدولة الوطن الذي يشكل منطلقًا للتأريخ في إطاره العلمي.

في هذا الإطار، نسجّل أنّ ما قاله الدكتور أحمد بيضون عن المؤرّخين الأرثوذكس عمومًا ينطبق بامتياز على أسد رستم. فهم في تعاملهم مع لبنان كدولة لم يقترحوا بديلاً عن الوطن الناشئ مستوحىً من ماضيهم أو تراثهم السياسيّ او الدينيّ، بل تعاملوا مع لبنان في صفته دولةً بالمعنى الحديث. هذا ما جعل تأريخهم مجرّدًا من أي تحيّز دينيّ أو طائفيّ. هكذا ابتعد أسد رستم في نشره الحوليّات التاريخيّة وفي أبحاثه عن الحكم المصريّ وعهد المتصرفيّة عن العصبيّات الطائفيّة والانتماءات الضيّقة. والحقّ أنّ الدراسات المنشورة هنا، والتي أعدّها أساتذة زملاء لنا، جعلتنا نتساءل عن الميول

السياسيّة للمؤرّخ الذي أسهم طوال حياته في وضع دساتير العديد من الأحزاب السياسيّة، ما يستدلّ منه على قدرة رستم على حماية العمليّة التأريخيّة من ضغط الانتماء السياسيّ الضيّق. والأكيد أنّ رستم آمن بأنّ النظام الديمقراطيّ الذي اختاره لبنان وسيلة حكم تعوزه حياة سياسيّة حرّة يكون العمل الحزبيّ المتنوّع الاتّجاهات مدخلها.

و لم يكتفِ أسد رستم بدوره كمؤرّخ يحلّل الوثائق، بل ذهب إلى المصادر وعمل فترةً طويلةً على تقصّي وثائق مصر وبلاد الشام في المحفوظات الملكيّة المصريّة. كما أنه نقّب في كل مدن المشرق عن مصادر جديدة معاينًا ما تنطوي عليه خزانات العائلات في غير ناحية. فكان سبّاقاً، رغم مذهبه التأريخيّ الوضعيّ، في البحث عن الأصول التاريخيّة وإعداد الفهارس العلميّة واعتماد قواعد التحقيق العلميّة في نشر المخطوطات والمحفوظات والحوليّات القديمة.

معهد التاريخ والآثار والتراث المشرقيّ
مركز التوثيق والدراسات الأنطاكيّة